النسق الثقافي في خطاب الرحلة بين الذات والآخر
(رحلة ابن فضلان نموذجا)

The cultural pattern in the discourse of the journey between self and the other
(Ibn Fadlan's journey as a model)

عبد القادر مربوح * [1]
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)
aek.mer48@gmail.com
مراد معاذ مقري[2]
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)
mouradmekri1987@gmail.com

تاريخ الإرسال:2024/07/19	تاريخ القبول:2024/12/20	تاريخ النشر:2024/12/21

الملخص:

الجميل في الرحلة أنّها مكان تجتمع فيه عدّة عوالم، وتصور لنا حضارات بأكملها، تصف المكان وأناسه، وأحوالهم، فتكون بذلك موسوعة تستلهم الباحثين إليّها من كل تخصص، لتنوع أنساقها الثقافية، من عرضها للجانب المعرفي، والديني، والممارسات الاجتماعية، وعادات الآخر وتقاليده، فتكون الرحلة بذلك بين فكرين قد يختلفان، وقد يحصل لهما التشابه بين فكر الوافد الرحالة، وفكر المستقبل أو محطّ الوافد على صاحب الدّار.

لكن في ظل ذلك لم يقتصر الرحالة ابن فضلان في رحلته نحو بلد الترك والروس والخزر والصقالبة على وصف، وعرض ما يتميز به هذا الآخر، وإنّما كان الأنا لديّه حاضرا في إبراز ما يوافق ثقافته، وما يعارضها، فتتجلى مداخلتنا في التعرّف على تنوع النسق الثقافي بين حضور الأنا، وممارسة الآخر، فالرحالة ابن فضلان أثناء رحلته لهذه الأمكنة المختلفة في علاقة تواصلية مع حياة هذا الآخر بين رفض

* عبد القادر مربوح

وقبول، واستحسان، واعجاب، أتى على ذكر ما يميّز أنساقه الثقافية مستحضرا أناه، وهويته التي لا تقبل ما ينافي انتماء؛ يجسّدها لنا في نصه الرحلي.

الكلمات المفتاحية: الرحلة، النسق، الثقافة، الذات، الأخر.

Abstract:

The beautiful thing about the trip is that it is a place where several worlds meet, and depict us entire civilizations, describing the place and its people, and their conditions, so it will be an encyclopedia that inspires researchers from each discipline, for the diversity of its cultural patterns, from its presentation of the cognitive aspect, religion, social practices, and the customs and traditions of the other, so the journey is between two ideas that may differ, and they may have similarities between the thought of the traveler expatriate, and the thought of the future or the destination of the expatriate to the owner of the house.

But in light of that, the traveler Ibn Fadlan was not limited in his journey towards the country of the Turks, Russians, Khazars and Saqalba to describe, and display what distinguishes this other, but the ego has a present in highlighting what corresponds to his culture, and what opposes it, so our intervention is reflected in identifying the diversity of the cultural pattern between the presence of the ego, and the practice of the other, the traveler Ibn Fadlan during his trip to these different places in a communicative relationship with the life of this other between rejection and acceptance, approval, and admiration, came to mention what distinguishes His cultural patterns, evoking his ego and identity that does not accept anything contrary to his belonging, is embodied for us in his nomadic text.

Keywords: flight, Theme ,culture, Self ,The other.

مقدمة:

تعد الرحلة خطاب الحضارات، يجسده تنقل الرحالة المستمر، يجوب الأمكنة والأزمنة، فيسجل الرحالة كل ما تقع عليه عيّنه، ويلتصق بذاكرته من طرق حياة الناس، وممارستهم الاجتماعية والدينية، وتنوعهم الثقافي الذي يعرف بهويتهم بين العوالم، فالرحلة من الخطابات التي تصور لنا العلاقات الإنسانية في تواصلها وتمازجها، لكن هذه العلاقات ما يميزها، هو ذلك الجدال أو الصراع بين فكر الأنا وصورة الآخر، يشكلها مدّ الرحالة وجزر محطّ وجهته، حيث تتجلى المواجهة بين سعي كل من الأنا والآخر إلى إقرار ذاته أو إلى بسط فكره، وفرض هويته الثقافية هذا ما يذكي الخطاب الرحلي المحمل بالمرجعيات الفكرية والثقافية المختلفة، بذلك تتجاوز موضوع مجرد اكتشاف المكان إلى التعرف على روح حياة هذا الموقع الجغرافي بكل أبعاده.

فذات الرحالة تستند لمرجعيات ثقافية معيّنة تشكل هويته، لكن الآخر لا ريّب أنّه يختلف عن ما يتمتع به، فالرحلة سجل يصوغه الكاتب خطابا أدبيّا يدون فيها كل ما وجده في ترحاله وفق حضور يصحبه الوصف الواعي بما يصادفه، فقد أصبحت وجهة يقصدها الدارسون والباحثون إليها من كل حدّب

وصوب يسعون لمقاربة هذا الخطاب المتنوع المرجعيات، المتعدّد الفنون الأدبيّة. في هذا السيّاق يكون موضوع ورقتنا البحثية تتبع حضور الأنساق الثقافية لنص رحلة ابن فضلان نحو عدة أقطار، مختلفة الشكل واللون، واللغة، نحو الترك والروس والخزر والصقالبة، نقف عند أنساقها الثقافية التي ترصد لنا وعي الذات بنفسها، وممارسة الآخر فعله الثقافي. وقد تجاوز كلاهما مسافة الانغلاق على بعضهما البعض.

2. جدلية الأنا والآخر لخطاب الرحلة:

يعتبر خطاب الرحلة من أبرز الخطابات التي تتجلى فيها ثنائية الأنا والآخر بفعل التواصل الحاصل بين ذات الرحالة، والمكان الذي يقصده في علاقة قد ينجم عنها اختلاف أو توافق أو تصادم أو تشابه في بعض المقومات وتباين في بعضها الآخر، لهذا هي «من أكثر الفنون قدرة على تجسيد إشكالية الأنا والآخر، إذ تتيح الفرصة لصوت الأنا للتعبير عما يضطرب في الأعماق من مخاوف وآلام وأفكار، فتنطلق في نقد الذات والآخر معا»[1] فيسهم خطاب الرحلة بذلك في بسط صورة الأنا المتمثلة في ذات الرحالة، قاصدا الآخر بكل أشكاله فردا أو جماعة، هذه الثنائية هي نواة ممارسة الرحلة حتى وإن لم يحدّد لها هذا المقصد، وإنّما يحصل ذلك من طبيعة تكوين الخطاب الرحلي.

« فتتشكل الأنا في الذات التي تعود على الرّحّالة محملا بفكره وثقافته يرتحل بها من بلد إلى بلد، والآخر يتمثل في الغير الذي يلتقي به المتجول، إنّها لحظة التقاء مع عوالم وأفكار، وثقافات جديدة، فيجد المجهول ليصبح معلوما، وبين حصول التصادم بين الأنا والآخر، تحركهم نحن، لا يستقلان عن الجماعة التي أنتجتهم، فلم تظهر الأنا هكذا لوحدها دون ترسبات فكرية وثقافية كونتها، والآخر هو المخالف لها لكنه أيضا يمثل جماعة لها ما ميزها عن الذات، لهذا يمكن أن نقول عن هذا الاختلاف أمر مسلما به»[2] وقد يحصل التوافق بين الثنائيتين بفعل الانفتاح على الغير من كلا الطرفين دون التخلي عن هويتهما الثقافية.

والأنا هو وجود للآخر مرتبط بتحقيق ذاته، لأن الأنا هي: « الفرد أي الموضوع القائم بذاته، القاعدي، المرتبط بالروح أو الحامل المادي للنشاط الذي يكتسب واقعية الحياة في التعامل فقط مع شخص آخر أي أنت »[3] أيّ أن له كيان خاص به، ويبرز ذلك من خلال الآخر أين يلتمس الفرق بينه وبين المغاير، فيصبح للأنا ذاتيتها الخاصة أمامه؛ ومن تم تشمل تفكير الشخص أو المرء بأنّه فارق عن الآخر حتى وإن تجلى التشابه في بعض الصفات الحياتية أو الأنساق الثقافية، يبقى للأنا هويتها.

أما الآخر« بأبسط صوره هو مثيل أو نقيض الذات أو الأنا، إذ لا يمكن الحديث عن الآخر بمعزل عن الذات»[4] يختلف الغير عن الأنا لكن تحقيق وجودهما يكون بتقابلهما، إذ لا يمكن الحديث عن أحدهما منفردين فتحقيق الذات تصحبه صورة الآخر بكل ما تمثله من أحوال اجتماعية، وثقافية، ولغوية، والنص الرحلي من النصوص السرديّة الأدبية التي تحتفي بهذه الظاهرة أو الجدلية، التي تتلقفاه العديد من الفنون والعلوم، الفلسفة وعلم النفس وغيرها.

وخير فعل يصور لنا هذه الثنائية هي النسق الثقافي لأنّه « ما من شك أن كل ثقافة من الثقافات الإنسانية المختلفة تحمل صورة معيّنة للـ " آخر" والآخر هو كلّ ما ترى الذات أنّه مخالف لها أو مختلف عنها. إن الآخر هو الذي تقضي الذات الجمعيّة بمخالفته إيّاها، وتحكم باختلافه عنها في نظم الحياة كلّها: في الدين واللّسان، وفي العادات والتقاليد، في القيم والموازين، في الأعراف والأذواق...»[5] لهذا يعد النسق الثقافي بحمولاته المتنوعة معرفا لجماعة معينة لها نظمها الاجتماعية المائزة لها؛ تختلف عن طبيعة مجتمع معين يحدّده الضمير الجمعي أو النحن.

وهذا التباين بين المجتمعات الإنسانية يصنع الذات، بيد أنّه الملفت في الموضوع هو« رؤية الذات ودرجة وعيّها لهذا الآخر من إعجاب أو موافقة لنظمه أو طريقة عيشه أو غيرها ممن توافقه الذات، حتى قد يصل الأمر إلى الأخذ عنها أو تبني فكرها، وقد يكون رفضا أو كرها لما لقيته (الذات) عن هذا الغير»[6] فالرحلة نص أدبي ينسجه السرد، قوامها المشاهدة والوصف، وهي نسج لفعل الذات والآخر وفق رؤية ما يشكلها ممارسة النسق بين اللاوعي والوعي.

3. توطئة حول الرحلة:

شهدت رحلة ابن فضلان انفتاحا ثقافيا واسعا، حيث كانت أول إشكالية اعترضت هذه الرحلة هي موضوع الجنس، بمعنى إلى أيّ جنس أدبي تصنف هذه الكتابة إلى فن الرحلة أم فن الترسل لأنّها عبارة عن رسالة كتبها ابن فضلان إلى الخليفة العباسي، وهذه إشكالية عامة نجدها في أدب الرحلة، التي ترجع إلى ميزة الكتابة الرحلية لا تتوفر عليها باقي الفنون والكتابات الأدبية الأخرى، فنرى أنّها تحوي السيرة والتاريخ والجغرافيا، وغيرها من العلوم، الأمر الذي قد يخلق خلافا حول إلى أيّ لون أدبي تنسب هذه الكتابة؟« وبالتالي فهي رسالة، ولكن مضمون هذه الرسالة نص رحلة كاملة مكتملة، صحيحة في نسبها لصاحبها. والحكم الذي نخرج به من دائرة هذا الخلاف البسيط، أن المدونة رحلة، وكونها أرسلت للخليفة، لن يغير من نوعها الأدبي شيئا، فالعبرة بالمضمون الأصلي، وجل الدارسين والمؤرخين للأدب يعتبرونها رحلة، وهي بذلك اشتهرت وعرفت»[7]

وعليه لا إشكال بأن تكون مدونة ابن فضلان رحلة ورسالة في نفس الوقت، حيث أجرى الرحالة سفره إلى العديد من الأماكن واصفا ومشاهدا حياة أقوام وأناس يختلفون في الجنس والثقافة، بطلب من الخليفة أن يجري هذه الرحلة، التي جعلها في النهاية رسالة بعثها له يذكر له ما عاشه ولقيه في هذه البلدان والأقطار، حيث نقرأ عن أهميتها لدى المستشرق كراتشوفسكي« نجد أثرا طريفا بالنسبة لعصره (ابن فضلان) فهو يقدم لنا صورة حية للظروف السياسية 227 في العالم الإسلامي والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المتاخمة لها في آسيا الوسطى أو الأصقاع النائية التي كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك مثل حوض وهي الفولجا، وتحفل الرسالة بمادة أثنوغرافية قيمة جدا ومتنوعة بصورة فريدة تمس عددا من القبائل التركية البدوية. القاطنة آسيا الوسطى وعددا من الشعوب التي كانت تلعب آنذاك دورا أساسيا في تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر، كما لا يمكن إنكار قيمتها الأدبية وأسلوبها القصصي السلس ولغتها الحية المصورة التي لا تخلو بين آونة وأخرى من بعض الدعاية التي ربما لم تكن مقصودة »[8]

فرحلة ابن فضلان التي سجلت انطلاقها كما ذكر في مقدمة كتاب الرحلة « يوم الخميس 11صفر سنة 309هـ، الموافق لـ 21 حزيران 921م التي كانت رحلة شائقة بتكليف من الخليفة العباسي، بعد أن طلب الصقالبة منه المساعدة»[9] شمل خط سير الرحلة العديد من الأقطار والأماكن التي زارها الرحالة، التي نجدها مبثوثة في النص بالترتيب أتى عليه مسار السفر يبدأ من بغداد، نهروان، الدسكرة، حلوان، قرميسين، همذان، ساورة، الري، خوار الري، سمنان، الدامغان، نيسابور، سرخس، مرو، قشمهان، آمل، آفرير، بيكند، بخارى، خوارزم، الجرجانية، جيت، الصقالبة، الروسية، ثم الخزر[10] فقد تنوعت وجهة الرحالة بين الشمال والشرق لمدن العجم والترك بعد أن كان الانطلاق من بلاد العرب، حيث كانت بغداد فاتحة هذا السفر الماتع.

تعدد وتنوع المكان في رحلة ابن فضلان، حتى يظن لأول وهلة من الاطلاع على متن الرحلة أنّها وصف للمناطق الجغرافية لهذا السفر بعد أن يرى هذا العدد الكبير من المدن، لكن مقصد الرحالة كان ذو بعد ديني يسعى فيه لنشر تعاليم الإسلام في هذه الأقطار، ذلك ما يصرح به ابن فضلان في بداية متنه: « لما وصل كتاب ألمش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر، يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجدا، وينصب له منبرا، ليقيم عليه الدعوة له في بلده، وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصنن فيه من الملوك المخالفين له، فأجيب إلى ما سأل من ذلك»[11] لهذا يمكن القول أنّها رحلة دعوية تسعى لنشر تعاليم الدين الإسلامي عبر هذه المناطق.

صحب هذه الدعوة وصف لمظاهر الحياة التي تعرفها تلك البلدان من واقعهم الاجتماعي، وممارساتهم السياسية، وحياتهم الثقافية كما قرأنا ذلك آنفا عند المستشرق كراتشوفسكي أنّها كانت وصفا دقيق لصورة حية، من بين الأوصاف التي تعود على المكان، يقول ابن فضلان:« ورأيت النّهار عندهم طويلا جدا، وإذ أنّه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر اللّيل ويطول الليل ويقصر النهار، فلمّا كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السّماء، فلم أر من الكواكب إلّا عددا يسيرا ظننت أنّه نحو الخمسة عشر كوكبا متفرّقة، وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب بتة، إذا اللّيل قليل الظّلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر غلوة سهم »[12] فقد أتى على ذكر العديد من المشاهد الحيّة تعرف بالمكان الجغرافي الذي يخص كل منطقة، ولم يكتف بذلك، وإنّما تعرض أيضا إلى بعض المظاهر العجيبة يسبح فيها الخيال بين تشكيل الصورة، ومحاولة تصديق الظاهرة العجيبة، كقوله:« ولقد كنت أخرج من الحمام فإذا دخلت الى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها من النار »[13] عبارة تجعل القارئ يسبح بمخيلته التي تنقله من الصورة الواقعية إلى عالم الخيال والفنتازيا، وهذا راجع لما شهده من حالات يعجز اللسان عن سردها فما بال التصديق بها قد أضفت على نص الرحلة عجائبية السرد.

قد عمد ابن فضلان في ذكر ووصف ما عاشه في ترحاله بين هذه البلدان إلى أحوالهم الدينية والاجتماعية بصورة تتجاوز مجرد السرد والحكي إلى ذكر رأيّه حولها مع ما يوافق انتماءه الثقافي والديني، في ذكر الصحيح والمخالف أين يمكننا أن نتلمس حضور جدلية الأنا والآخر في توقيع هذه الأنساق المتنوعة بين ذات الرحالة، وممارسة الآخر لها.

4. حضور الأنساق في خطاب رحلة ابن فضلان:

يتميز خطاب الرحلة بحضور مكثف ومتنوع للأنساق الثقافية التي تسجلها الرحلة بتفاعل الرحالة معها، لأنّه «كانت الرحلات لونا من ألوان التبادل الفكريّ والأدبيّ، إذ مثلت واسطة احتكاك بين الثقافات المختلفة من جانب، وأداة تفاعل داخل الثقافة الواحدة من جانب آخر، بحيث أفادت الشعوب بعضها من بعض، كما لمس الرّحالة الفوارق بين مختلف الثقافات في البلدان التي قصدوها، وألّموا بمظاهر الحضارة في تلك البلدان، وربّما أصبح بعضها جزءا من التكوين الثقافي للرحّالة، أو شكل بعضها الآخر صراعا حضاريّا في فكر الرّحّالة، لاسيّما موقف الحرية والمساواة،...»[14]وهذه إحدى خصائص أدب الرحلة التي لا نرى لها وجودا في الفنون الأدبيّة الأخرى، هي بنيتها التركيبية التي تمكنّها من احتواء عدد هائل من الأنساق المتفاعلة بين ثقافة المرتحل وثقافة المكان.

تزخر رحلة ابن فضلان بأنساق ثقافية متنوعة المشارب يأتي في مقدمتها النسق الديني الذي يظهر بعدة صور.

1.4 النسق الدينّي: يعدّ الأكثر حضورا في رحلة ابن فضلان لأنّه كان أحد مقاصدها الأساسية؛ يتمثل في بعض السلوكيات والممارسات التي لا حظها الرحالة لدى الآخر بعضها يعارض فكر ابن فضلان أو منافية لتعاليم دينه، وبعضها يقرّها لصحتها، من بيّن هذه المظاهر التي تبرزها لنا الرحلة قضية توحيد الله والوقوع في الشرك، التي وجدها الرحالة لدى بعض الأقوام والطوائف من الترك يسمون الباشغرد حيث تنتشر لديّهم العديد من الأمور المنافية لعقيدة الدين الإسلامي، فقد وصل بهم الشرك إلى أن جعلوا لكل شيء آلهة من الطبيعة والفصول والحيوانات، فنرى لديّهم تعدد المعبودين؛ يقول ابن فضلان: «ومنهم من يزعم أّن له اثني عشر ربا، للشتاء رّب وللصيف رّب، وللريح رّب، وللناس رّب، وللدواب رّب، وللماء رّب، ولليل رّب، وللأرض رّب وللشجر رّب، وللنّهار رّب وللموت رّب، وللأرض رّب، والرّب الذي في السماء أكبرهم إلا أنّه يجتمع مع هؤلاء باتفاق، ويرضى كلّ واحد بما يعمل شريكه، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا، ورأينا طائفة منهم تعبد الحيّات، وطائفة تعبد السّمك، وطائفة تعبد الكراكي »[15]

فكل هذا يتنافى مع عقيدة المسلمين التي هي عقيدة ابن فضلان، فقد استهجن ذلك برّده المفحم من قول الله سبحانه وتعالى(عمّا يقول الظالمون علوا كبيرا) هي رّد وإجابة على كل من زعم أن لله شريكا، فتلك عقيدة فاسدة وجدها ابن فضلان لدى هؤلاء القوم. أيضا من التصرفات المنافية للدين الإسلامي التي وقف عندها هي كيفية تعامل الروس مع موتاهم، حيث يقول:« وكان يقال لي أنّهم يفعلون برؤسائهم عند الموت أمورا أقلّها الحرق فكنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغني موت رجل منهم جليل فجعلوه في قبره وسقفوا عليه عشرة أيّام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها. وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغني يجمعون ماله ويعلونه ثلاثة أثلاث: فثلث لأهله، وثلث يقطعون له به ثيابا وثلث ينبذون به نبيذا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها»[16] استهتار كبير بموت الأنسان لا يلقون له حرمة، ولاإنسانية بأبشع الصور ينتهكون فيه تعاليم الإسلام، حيث يجعلون لدفن مواتاهم طبقية بين السادة والفقراء، وكل هذا ينافي معتقد ابن فضلان.

ومن الحرمات التي ذكرت في الرحلة ما يتعلق بالطهارة يصرح بذلك ابن فضلان « لا يستنجون من غائط، ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك، وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصة في الشتاء، ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم، كذلك لا تستتر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس. ولقد نزلنا يوما على رجل منهم فجلسنا وامرأة الرجل معنا فبينا هي تحدثنا إذ كشفت فرجها وحكته، ونحن ننظر إليها فسترنا وجوهنا وقلنا استغفر الله،...»[17] وهذا باب أساس العبادة لدى المسلمين، إذ لا تصح

عبادة الصلاة بدون تحقيق الطهارة، ليسرد علينا بعد ذلك الرحالة حرمة ستر المرأة وما وجده عند هؤلاء القوم من جلوس المرأة معهم دون ستر، بل أبعد ذلك أن تكشف عن عورتها أماهم في حضرت زوجها بشكل ينم على أنّه طبيعي في عيشهم، فقد كانت هذه بعض المظاهر البيّنة التي تعارض الانتماء الديني لذات الرحالة أما هؤلاء الأقوام ما وجده من جهل وانتهاك حرمة الإسلام.

وعلاقة الأنا والآخر في الرحلة لا تلتمس من الاختلاف بينهما، وإنّما تحدث بفعل توافق بين ما يعتقده ابن فضلان وبين ما وجده في فكر الغير، كفكرة مرتكب الكبيرة، وضرورة قيام الحد رغم اختلاف نوع العقوبة على ما أتى بها الشرع، يقول:« لا يزنون بوجه ولا سبب، ومن زنا منهم كائنا من كان ضربوا له أربع سكك، وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضا، ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة وما زلت اجتهد أن يستتر النساء من الرجال فما استوى لي ذلك...»[18] نرى أن ابن فضلان قد وافق الآخر في فكرة قيام الحد على مرتكب هذه المعصية (فاحشة الزنا) رغم تباين الطريقة، لأن ذلك ما نصت عليه شريعة الإسلام في ضرورة إنزال العقوبة بالمذنب حتى تحدّ من انتشار هذا السلوك غير الأخلاقي لدى الناس.

2.4 النسق الثقافي: لا ريب أن السفر أو الترحال إلى أماكن بلدان ومدن مختلفة اللغة والقطر الجغرافي؛ سيمكن المرتحل من اكتشاف عادات وتقاليد، وممارسات حياتية تميز ذلك المكان بفكره وانتماءه عن ما تتمتع به الذات أمام الآخر، لهذا نقرأ في رحلتنا العديد من الأنساق التي تصور لنا الحياة الثقافية من ثقافة الباس وإكرام الضيف، وممارسة الفروسية، والحرية في التعبير عن انتاءه الديني واحترام حقوق الآخرين، وغيرها من الصفات والأفعال التي سردها لنا ابن فضلان؛ يقول في مقطع من رحلته حول لباس الرجل الروسي وامرأته:« يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه، وسيوفهم صفائح مشطبة إفرنجية من حد، ظفر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجر وصور وغير ذلك »[19] وهذا راجع للطبيعة التي يعرفها الرجل الروسي مثل تضاريس المكان استدعى منه حمل عدّة تميزه كرجل جلد صامد أمام هذا الوضع، يرافقه السيف والفأس والسكين، قد تكون من همجية هذا الآخر التي تعود لصعوبة عيش الحياة.

هذا عن الرجل أما المرأة فقد كان لها شكل خاص من الزينة، والشيء الملفت في ذلك هو أنّها تتزين حسب مقدور زوجها من الإنفاق دون تكلف، نلتمسه في قوله:« كل امرأة منهم فعلى ثديها حقّة مشدودة إمّا من حديد، وإمّا من فضة، وإمّا من نحاس، وإمّا من ذهب، على قدر مال زوجها ومقداره .. وفي كلّ حقّة حلقة فيها سكين مشدودة على الثّدي أيضا وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة لأنّ الرّجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقا وإن ملك عشرين صاغ لها طوقين وكذلك كل عشرة آلاف يزداد

طوقا لامرأته فربما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة»[20] ثقافة توثق مكانة حضور المرأة في مجتمع الآخر، في قيام الرجل على توفير ما تحتاجه زوجته، وزينتها كانت أساس هذا الحضور الذي شهدته أنا الرحالة.

ومن الأنساق الثقافية في الرحلة نسق الكرم الذي وصفه لنا ابن فضلان « ولا يقدر أحد من المسلمين أن يجتاز ببلدهم حتى يجعل منهم صديقا ينزل عليه، ويحمل له من بلد الإسلام ثوبا ولامرأته منقعة وشيئا من فلفل وجاورس وزبيب وجوز فإذا قدم على صديقه ضرب له قبة وحمل إليه من الغنم على قدره حتّى يتولى المسلم ذبحها،...وإذا أراد الرجل منهم الرحيل وقد قام عليه شيء من جماله ودوابه أو احتاج إلى مال ترك ما قد قام عند صديقه التركي، وأخذ من جماله ودوابه حاجته ورحل، فإذا عاد من الوجه الذي يقصده قضاه ماله ورّد إليه جماله ودوابه. لو اجتاز بالتركي إنسان لا يعرفه ثم قال: "أنا ضيفك، وأنا أريد من جمالك ودوابك ودراهمك دفع إليه ما يريد »[21] فقد راق السلوك ذات الرحالة باعتباره أحد أهم صفات الإنسان العربي والمسلم الذي وجده ممارسا لدى الآخر في استقباله للضيف وتقديم الطعام، وتسخيره له كل سبل الراحة لضيوفه.

أيضا من الثقافات الشائعة لديهم طريقة إلقاء التحية على ملكهم، بحيث ينزعون غطاء الرأس(القلنسوة) إذا مر عليهم وهي من لباسهم المعتاد، يجعلونها تحت ابطهم احتراما وتحية له، يصف ذلك في نصه:« وكلّهم يلبسون القلانس، فإذا ركب الملك وحده من غير غلام، ولا أحد يكون معه، فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت ابطه، فإذا جاوزهم ردّوا قلانسهم إلى رؤوسهم...»[22] كانت تلقى التحيّة عندهم بهذا الشكل نزع غطاء الرأس أحد عادات لباسهم يلحق بها الإيماء بالرأس تعبيرا عن الاحترام، ولعل ابن فضلان ما يستحسنه منهم هو الاحترام رغم اختلاف شكل إلقاء التحيّة عن ما تعرفه ذاته.

3.4 النسق العجائبي (الفانتازيا): وهو طافح بشكل كبير يتمثل في عدة أوصاف شهدها الرحالة لدى تجواله أين يجد الخيال لنفسه مكانا بين ما هو كائن وما هو من وحي المخيلة، التي قد تعود للشدة الدهشة والإعجاب، والحيرة بما قد يلقاه المتجول من أمور تبعث على المبالغة في ذكرها ووصفها للغير، لأنّها قد أوقعت في النفس شيئا غير معتاد رؤيته أو مشاهدته، هذا ما نقرأه لدى رحالتنا ابن فضلان في العديد من المقاطع، منها ما رآه من منظر عجيب عند قوم الصقالبة:« ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرة، من ذلك أول ليلة بتناها في بلده، رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية أفق السّماء وقد احمرّت احمرارا شديدا، وسمعت في الجوّ أصواتا شديدة وهمهمة عالية فرفعت رأسي، فإذا غيم أحمر مثل النّار قريب منّي، وإذا تلك الهمهمة والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدوّاب، وإذا في أيدي الأشباح

تشبه الناس رماح وسيوف أتيّنها وأتخيّلها،...»[23] وصف حقيقي قد نسجه مخيلة ابن فضلان لشدة فزعه وهلعه بالمنظر، أدى به إلى استعمال خياله لعجائبية الصورة المشاهدة التي تعود لطبيعة المكان الجغرافي.

ويسرد علينا عجائبية أخرى في قوله:« فركبت معهم حتى صرت إلى النهر فإذا أنا بالرجل وإذا هو بذارعي اثنا عشر ذراعا وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القدور وأنف أكبر من شبر وعينان عظيمتان وأصابع تكون أكثر من شبر شبر، فراعني أمره ودخلني ما دخل القوم من الفزع وأقبلنا نكلّمه ولا يكلّمنا بل ينظر إلينا، فحملته إلى مكاني وكتبت إلى أهل ويسو وهم منّا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه فكتبوا إليّ يعرفونني أن هذا الرجل من يأجوج ومأجوج »[24] إنّها عجائبية الآخر تتعلق بوصف شخص لا شك أنّه عظيم الخلقة قد أثار دهشة ذات الرحالة بهذا المنظر الخارج عن المألوف. عجائبية وقودها الخيال قد وظفها الرحالة بشكل يحيلنا إلى أدب الفنتازيا، التي تستدعي القارئ أن يسبح معها بمخيلته وفق ذلك التناسق العجيب في الوصف والسرد، اضفت على نص الرحلة متعة القراءة، وجمالية المشهد.

وقفنا عند بعض الأنواع من الأنساق المتعددة داخل الرحلة المتنوعة الحمولات، حيث كان أهمها الحمولة الدينيّة، والثقافية، والعجائبية؛ استأنسنا فيها ببعض المقاطع من نص الرحلة تبرز تجليها بين رأيّ الأنا، وفعل ما وجدته لدى الآخر، أين حدث صدام مرة، واستحسان مرة أخرى.

5. الخاتمة:

تبقى الرحلة خطابا فريدا من حيث الرؤية والتجربة، التي يخوضها الرحالة على غرار باقي الخطابات الأدبيّة الأخرى، فالرؤية تتجلى في ذاتية الرحالة، والتجربة فيما يجده لدى الآخر، لهذا لقد رسمت لنا رحلة ابن فضلان صورتي الأنا والآخر وفق دينامية جسدها النسق بمختلف حمولاته الثقافية، فكر الذات، وكيف هي حياة الغير. لهذا جعلنا نسجل بعض النتائج الأتية:

_ سلك ابن فضلان في رحلة موضوعية الوصف وفق رؤية نقدية واعية تظهر في رفضه لبعض السلوكيات التي يتحلى بها الآخر، وإقراره لما يوفق رؤيته وانتماءه الإسلامي.

_ شكلت الرحلة مادة غنية ثرية بما تحمله من معلومات تاريخية وعلمية وثقافية، وجغرافية عاشها الرحالة خلال شده الرحال إلى أقطار وبلدان مختلفة الموقع واللغة والجنس، مّما قد يجعلها مصدرا هاما في البحث والسفر والتعرف على حقيقة الأقوام.

_ اعتمد الرحالة على الصدق في وصف ما شاهده وعاشه، وفق رؤية انفتاحية على الآخر لنص رحلته.

_ تميزت رحلة ابن فضلان على غيرها من الرحلات بميزة النسق العجائبي، وهو طافح بشكل واضح على نص متن الرحلة، حيث ترتحل بمخيلة المتلقي نحو معارج الفنتازيا والأساطير.

_ استطاعت الرحلة أن تعرض ثنائية الأنا والآخر وفق رؤية موضوعية لا تحيد عن هوية كل واحد منهما، وإنّما ساهمت في إبرازها سواء ما ارتبط بابن فضلان، وما تعلق بالآخر.

_ يمكن أن يكون خطاب الرحلة مادة خصبة للعديد من الدراسات، ومناهج تحليل الخطاب، نظرا لاحتوائها على العديد من الإجراءات التحليلية، والآليات النصيّة كالقراءة الثقافية التي هي واحدة من تلك المقاربات النصية.

_ يحتل النسق الديني المرتبة الأولى في خطاب رحلة ابن فضلان، الذي يعود إلى الهدف الأول من الرحلة، وهو أنّها رحلة دعوية.

_ يتمتع ابن فضلان بفكر منفتح على الآخر بعيد عن التعصب الشديد لهويته الدينية، بحيث يعرض المخالف، ويقر الصحيح منه، ويستحسن الحسن، ويستهجن الهجين منه والوحشي دون خوف، بنزاهة قد حققت له القبول لدى الآخر.

6. مكتبة البحث:

_ أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة (921)، تقديم شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى 2003.

_ إيغور كون، البحث عن الذات دراسة في الشخصية ووعي الذات، ترجمة: غسان دارب نصر، منشورات دار معد للنشر والتوزيع، د.ط، دمشق، سوريا.

_ سامي الوافي، المثاقفة النقدية وسؤال الهوية، تفاعل الذات بالآخر، مجلة الآداب، مجلد 62، عدد 2.

_ كراتشكوفسكي أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة إيغور بليايف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، د.ط، لينينغراد، روسيا.

_ ليلى العبيدي، ملامح صور الآخر في نماذج من أدب الرحلة القديم، (مقال) 2022مارس، مجلة فصل الخطاب، العدد 01، المجلد 11.

_ ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، 2013، عالم المعرفة، الكويت، الخليج، د ط.

_ مراد معاذ مقري، الخطاب الرحلي من اكتشاف المجهول إلى تنوع الأنساق الثقافية رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (الجزائر) نموذجا استكتاب جماعي أدب الرحلة وجدلية الآخر، منشورات مخبر التراث والدراسات اللسانية جامعة الشاذلي بن جديد الطارف، الطبعة الأولى، 2023.

_ مسعود بن ساري، شهيناز قاسمي، الآخر بين الائتلاف والاختلاف في رحلة ابن فضلان، استكتاب جماعي أدب الرحلة وجدلية الآخر، منشورات مخبر التراث والدراسات اللسانية جامعة الشاذلي بن جديد الطارف، الطبعة الأولى، 2023.

_ نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغاربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، 1428هـ/ 2008م، دار المامون للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، الطبعة الأولى، عمان_ الأردن.

7. الإحالات والهوامش:

[1] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، 2013، عالم المعرفة، الكويت، الخليج، د ط، ص 14.

[2] مراد معاذ مقري، الخطاب الرحلي من اكتشاف المجهول إلى تنوع الأنساق الثقافية رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (الجزائر) نموذجا استكتاب جماعي أدب الرحلة وجدلية الآخر، منشورات مخبر التراث والدراسات اللسانية جامعة الشاذلي بن جديد الطارف، الطبعة الأولى، 2023، ص 33، 34.

[3] إيغور كون، البحث عن الذات دراسة في الشخصية ووعي الذات، ترجمة: غسان دارب نصر، منشورات دار معد للنشر والتوزيع، د.ط، دمشق، سوريا، ص 10، 11.

[4] سامي الوافي، المثاقفة النقدية وسؤال الهوية، تفاعل الذات بالآخر، مجلة الآداب، مجلد 62، عدد 2، ص4.

[5] ليلى العبيدي، ملامح صور الآخر في نماذج من أدب الرحلة القديم، (مقال) 2022مارس، مجلة فصل الخطاب، العدد 01، المجلد 11، ص136.

[6] مراد معاذ مقري، الخطاب الرحلي من اكتشاف المجهول إلى تنوع الأنساق الثقافية رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت، ص34.

[7] مسعود بن ساري، شهيناز قاسمي، الآخر بين الائتلاف والاختلاف في رحلة ابن فضلان، استكتاب جماعي أدب الرحلة وجدلية الآخر، منشورات مخبر التراث والدراسات اللسانية جامعة الشاذلي بن جديد الطارف، الطبعة الأولى، 2023، ص227، 228.

[8] كراتشكوفسكي أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة إيغور بليايف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، د.ط، لينينغراد، روسيا ، ص 187.

[9] ابن فضلان، رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة (921)، تقديم شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى 2003، ص 11.

[10] المصدر نفسه، ص 35، 36.

[11] المصدر نفسه، ص37، 38، 39.

[12] المصدر نفسه، ص84.

[13] المصدر نفسه، ص52، 53.

[14]نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغاربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، 1428هـ/ 2008م، دار المامون للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، الطبعة الأولى، عمان_ الأردن، ص187.

[15] المصدر السابق، ص 73، 74.

[15]

[16] المصدر نفسه، ص105، 106.

[17] المصدر نفسه، ص 62.

[18] المصدر نفسه، ص 89.

[19] المصدر نفسه، ص 102.

[20] المصدر نفسه، ص 102.

[21] المصدر نفسه، ص 64.

[22] المصدر نفسه، ص 87.

[23] المصدر نفسه، ص 82.

[24] المصدر نفسه، ص95، 96.